دور النّخب في الثّورة السّوريّة

THE ROLE OF ELITES IN THE SYRIAN REVOLUTION

د.يوسف الحمّود
دكتوراه في الفقه والأصول
Dr. Yusuf ALHAMOUD : PhD at Al Fiqh and Al Usul - University of Tripoli / Lebanon
ORCID / 0000-0003-0516-5632
yusuf.aldeb@gmail.com – 00905395499761 – Şanlıurfa / Turkey

https://doi.org/10.5281/zenodo.7768845 HjMS-VOL2023.CID:037018

الملخص:

يعتبر مصطلح النّخبة والصّفوة من المصطلحات المساوقة للثّورة ومفهومها وتاريخها وصيرورتها الاجتماعيّة والسّياسيّة، لأنّ النّخبة هي الصّفوة المؤثّرة تاريخيّاً في عمليّة التّغيير الاجتماعيّ والسّياسيّ، وخاصّةً في الثّورات العالميّة الحديثة في القرون الأخيرة، باعتبار أنّ النّخب هم الّذين يمثّلون المرجعيّة والرّمزيّة السّياسيّة والقانونيّة والفكريّة لهذه التّحوّلات الثّوريّة الكبرى، وهم الّذين كان لهم الدّور الأبرز في صياغة وتأسيس المدوّنات القانونيّة والسّياسيّة لمفاهيم الدّستور والعقد الاجتماعيّ ومنظومات حقوق الإنسان، ممّا أعطى هذه الثّورات رصيداً ثقافيّاً وسياسيّاً واضحاً للكفاح ضدّ الأنظمة الأوتوقراطيّة والشّموليّة.

وهذا لم يكن غائباً عن الفكر الثّوريّ الإسلاميّ في سيرورته التّاريخيّة، لأنّه يختزن تراثاً ثوريّاً كبيراً يتأسّس على مفاهيم الحقّ والعدل والحريّة والرّجوع إلى الشّورى وحقوق الأمّة ووجوب مقارعة الاستبداد والطّغيان، ولذلك كانت جدليّة الثّورة تمثّل جوهر ومضمون عمليّة التّغيير، ولذا افترقت النّخب والمرجعيّات التّاريخيّة والمعاصرة من مفكّرين وعلماء إلى مسارات ثلاثة؛ مسار المؤازرة والمناصرة المباشرة للثّورة، ومسار الرّفض والامتناع السّلبيّ، ومسار الاصطفاف والانخراط مع الأنظمة الجائرة.

الكلمات المفتاحيّة: ثورة؛ سوريا؛ صفوة؛ نخبة؛ نظام.

Abstract:

The terms elite and intelligentsia are considered from the terms which are harmonizing the revolution and it's concept, history, political and social becoming, Because the elites are the historically top influential in the process of political and social change, especially in the modern global revolutions in the last few centuries, considering that elites are the ones who represent the political, legal, and intellectual reference and symbolic for these big revolutionary transformation, and they are the ones who had the most prominent role in wording and establishing the legal and political blogs for the concepts of the constitution, the social contract and human rights systems, which gave these revolutions a clear, political and cultural asset for the fight against the autocratic totalitarian regimes.

This was not absent from the Islamic revolutionary thought in its historical process, because it includes a big revolutionary heritage based on the concepts of right, justice, freedom, refer to the consultation, nation's rights, And the necessity of fighting authoritarianism and tyranny. Therefore the revolution's dialectic was representing the essence and the content of the process of change. Hence, the historical and contemporary elites and intelligentsia including intellectuals and scholars divided into three paths: the path of support and direct

advocacy for the revolution, and the path of rejection and negative refrain, the path of lining up and engaging with the unjust regimes.

Key words: Revolution; Syria; intelligentsia; Elite; Regime.

1- المقدّمة:

إنّ إشكاليّة دور النّخبة ودور الصّفوة إحدى أبرز إشكاليّات العلاقة الثّقافيّة المجتمعيّة قديماً وحديثاً، وذلك لاعتبارات جدليّة تتبلور دائماً في التّأثير والتّحول الّذي تقوم به الصّفوة في القضايا الثقافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، وتختلف الصّفوة باختلاف طبيعة المجتمعات والنّخب المؤثّرة فيها من فقهاء، وأدباء، ومصلحين، وفلاسفة، وسياسيّين، والعلاقات التّاريخيّة بين النّخب والمجتمعات دليل على حيويّة العلاقة بين الطّرفين الفاعل والمنفعل، والمؤثّر والمتأثّر، وهما اللّذان يشكّلان قوى المجتمع الأهليّ والمدنيّ، وهذا ما يجب أن يحدث من خلال التّفاعلات والتّحوّلات الفكريّة والواقعيّة الكبرى الّتي تقوم بها الصّفوة في حقل الاجتماع الدّينيّ والسّياسيّ.

وتختلف مصطلحات وتسميات النّخبة بحسب القاعدة المنهجيّة والمعرفيّة الّتي تنطلق منها هذه المصطلحات الثّقافيّة والعلميّة والسّياسيّة، فاليساريّون يطلقون على الفرد الواحد من هذه النّخبة بالمثقّف العضويّ كما عند غرامشي الإيطاليّ (1891 -1937م)، وهو مصطلح شائع في الأدبيّات السّياسيّة اليساريّة، والليبراليّون يسمّون ذلك المثقّف بالمثقّف الاجتماعيّ، كما في مصطلح وتعبير إدوارد سعيد - المفكّر الفلسطينيّ- وهو ما يطلق عليه الإسلاميّون المثّقف الرّساليّ نسبةً إلى الرّسالة الإسلاميّة والدّور الحركيّ المطلوب.

وعلى هذا التّأسيس يُفصَل بين المثقّف العضويّ الفاعل في قضايا الاجتماع السّياسيّ وبين الأدباء والعلماء الّذين لا ينشغلون بهموم وحاجات المجتمع باعتبارهم متخصّصين وشخصيّات تكنوقراطيّة لا تتجاوز حدود اختصاصها العلميّ والفنّي، لأنّهم يكتبون للعلم وللأدب المجرّد لا من أجل إحداث التّغيير والتّأثير الاجتماعيّ والفكريّ والسّياسيّ في حقول الواقع المختلفة، وهذا ما يقود إلى السّؤال الآتي: لماذا حدثت هذه القطيعة والمفاصلة بين الصّفوة والنّخبة من جهة، وبين العمق الشّبابيّ والمجتمعيّ في أكثر تجارب ثورات الرّبيع العربيّ، ومنها الثّورة السّوريّة ؟!.

2- الأهميّة وسبب الاختيار:

- **أوّلا:** اعتبار الثّورة السّوريّة أهمّ الظواهر والتّحوّلات المجتمعيّة والسّياسيّة في التّاريخ الحديث.
- **ثانياً:** يشكّل ضعف حضور النّخبة أبرز إشكالات الثّورة وعوامل تداعيها وانشطارها.
- **ثالثاً:** إعادة تقويم دور النّخبة وفاعليّتها المفقودة في الحقل السّوريّ وتلمّس أسباب هذا التّراجع والغياب في مشهد الثّورة السّوريّة.

3 – أهداف البحث:

- **أولاً:** مقاربة الأسباب الحقيقيّة للانكماش والضّعف في صفوف النّخبة السّياسيّة والفكريّة والدينيّة، وتحديد مقدار الكمون السّياسيّ والثّوري في شريحة المثّقفين والمتخصّصين.
- **ثانياً:** رصد سلبيّة النّخب في دفع وتفعيل الثّورة وتحليل هذه الظاهرة بشكل واقعيّ.
- **ثالثاً:** الوصول إلى معطيات ونتائج تقويميّة صحيحة وكشف النّتائج السّلبيّة والعزلة الّتي أصابت النّخب الثّقافيّة والسّياسيّة.

4 – الدّراسة والمفاهيم:

المصطلحات:

النّخبة: النّخبة في اللّغة: المختار من كل شيء، والجمع: نخب ونُخُبات، والنّخبة هم مجموعة ذات خصائص وسمات معرفيّة وتخصّصيّة في الحقل العلميّ والاجتماعيّ.

وفي الاصطلاح: صفوة من النّاس المتعلّمين والمثقّفين والنّاجحين والعباقرة والموهوبين، الّذي وصلوا إلى مناصب مهمّة من الحكم والرئاسة(حدّاوي، 2015)، واضح بأنّ أكثر تعريفات علم الاجتماع السّياسي تحصر مفهوم النّخب في السّلطة والقرار السّياسيّ، ولكن هناك من ميّز بين السّلطة ومفهوم النّخبة المجتمعيّة، وهو ما نقصده في هذا المبحث النّقديّ، والنّخبة هنا بمعنى الصّفوة والأنتلجنسيا الاجتماعيّة الّتي تمتلك مؤهّلات ثقافيّة وتخصّصية مميّزة، دون أن يكون لهم وجود في القرار السّلطوي في مفاصل الحكم والدّولة، ولكن لهم وجود وتأثير في الحقل الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ العامّ على طيف واسع من الشّرائح المجتمعيّة والشّعبيّة.

معنى الثّورة لغةً واصطلاحاً:

الثّورة في اللّغة: من مصدر ثار، والجمع ثوْرات وثَوَرات(معجم المعاني الالكترونيّ)، وفي الاصطلاح: تغيير أساسيّ في الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة يقوم بها الشّعب في دولة ما وقد تكون ثورة سلميّة أو عسكريّة مسلّحة في طريقة التّغيير.

وقد عرّف -مصطلح الثّورة- محمد عمارة بقوله: "تغيير المجتمع تغييراً جذرياً وشاملاً، والانتقال به من مرحلة تطوّريّة معيّنة إلى أخرى أكثر تطوّرا وتقدّماً"(عمارة، 1988، ص9)، وأمّا الثّورة في تعريف عزمي بشارة فهي: "المقصود بالثّورة هو تحرّك شعبيّ واسع خارج البنية الدّستوريّة القائمة، أو خارج الشّرعيّة، ويتمثّل هدفه في تغيير نظام الحكم القائم في الدّولة"(بشارة، ص22)، وعلى هذه الأسس يتميّز مفهوم الثّورة عن الانتفاضة، بأنّ الانتفاضة تطلب تغييراً في اتجاه معيّن إنّما الثّورة تغيير شامل للمنظومة السّياسيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة فهي أعمّ وأشمل.

وإذا دخل الكفاح المسلّح كأسلوب من أساليب الدّفاع عن النّفس فتكون الثّورة بذلك قد حقّقت وجودها ومصطلحها الحقيقيّ، ولذلك شاع المصطلح في القرنين الأخيرين وأصبح أكثر حضوراً في مستويات العلاقة مع الخارج والدّاخل؛ الاستعمار المحتلّ للبلاد العربيّة والإسلاميّة، وكذلك في حقل الثّورة الدّاخليّة لمواجهة أنظمة الجور والطّغيان بغيةَ نيل الحريّة والكرامة والحقوق المهدورة.

البحث والمفاهيم:

انطلقت الثّورة السّوريّة في 2011م وتوسّعت شرارتُها لتشمل المدن والقرى في أكبر ثورة من الثّورات في العصر الحديث، وكانت شعاراتها جزءاً من شعارات الثّورات العربيّة الأخرى، وهي الحريّة والكرامة والعدل الاجتماعيّ انتهاء بإسقاط النّظام المجرم بعد استهدافه للشّعب الأعزل بالرّصاص والقتل والاعتقالات والتّعذيب الوحشيّ الممنهج، وتداعت الأوساط الشّعبيّة والمشاركة الطّلابيّة للتّفاعل بقوّة وعنفوان بطوليّ أمام آلة القتل والتّدمير السّلطويّة والميليشيات المؤازرة لها، حتّى ضربت فيها الأمثال بأنّها أعظم ثورة وأفشل قيادة في القرن الحادي والعشرين، وأكبر تضحيات وأقلّ مكاسب؟ لذلك قيل عن الثّورة السّوريّة بأنّها أفقر ثورة من حيث السّياسة والتّنظيم، وذلك نتاج لتراكمات طويلة لاستبداد معقّد وطغيانيّ، لم يجفّف ويدمّر الأحزاب السّياسيّة فحسب بل دمّر وجفّف السّياسة والثّقافة والقيم المجتمعيّة وكلّ عمليّات البناء والنّقد في الاجتماع السّياسيّ.

وبهذه الشّموليّة والسّيطرة أسهمت حالة التّسلّط الاستخباراتـيّ الطّائفيّ بالتّعجيل بالثّورة إضافةً للتّأثّر بالأوضاع العربيّة المماثلة في تونس ومصر وليبيا، وبدأ الانقسام واضحاً في العمق المجتمعيّ من حيث المساهمة من جهة الشّباب والطّبقة الاجتماعيّة المشاركة، ومن حيث التّربّص والانتظار من جهة النّخبة والصّفوة المراقبة لمسار الأوضاع

والأحداث، بينما اصطفّ أصحاب المصالح والامتيازات الاقتصاديّة والاجتماعيّة مع السّلطة وخياراتها القمعيّة، وذلك محافظة على المنافع المشتركة مع السّلطة القائمة(كيلة، 2013).

وكذلك وقفت النّماذج الطّائفيّة والإثنيّة برموزها ونخبها وعمقها الشّعبيّ على الحياد أو مع النّظام، من خلال الخطاب الطّائفيّ التّخويفي، وهو خطاب تحريضيّ صاغه النّظام وأعوانه في الدّاخل والخارج كحزب الله وإيران والعراق وبعض الدّول العربيّة المتخوّفة من ثورات الرّبيع العربيّ، وما ذاك إلاّ فزعاً من نتائج الثّورة وانعكاساتها الدّراماتيكيّة على أنظمة الحكم العربيّة الاستبداديّة، والّتي تخشى التّأثير والتّغيير.

وكانت الكتلة المجتمعيّة الكبرى من النّموذج المتحمّس للتّغيير هي طبقة الشّباب الجامعيّين والأوساط المدنيّة والقرويّة المحبطة والمهمّشة، لأنّ التّهميش والإقصاء والإفقار امتدّ عقوداً من الزّمن ازداد فيه الفقر والنّهب والفساد والتّسلّط الأمنيّ، وبدأت مرحلة الفرز في الحقل السّياسي تتّضح وتتوسّع بين من هو مع الثّورة وفاعل فيها، وبين من هو في موقع الصّمت والسّكوت انتظاراً للحسم والنّتائج المباشرة، وهوما يطلق عليهم في الاجتماع السّياسيّ -الأكثريّة السّاكتة والصّامتة- وأمّا النّخبة السّلطويّة فهي واضحة الميل والانخراط مع السّلطة في خطابها الإعلاميّ وأدواتها القمعيّة.

وبهذا التّمييز أصبحت النّخب من العلماء والفقهاء وشيوخ الدّين والأساتذة الجامعيين والتّكنوقراط من المؤيّدين الدّاعمين للنّظام أو من فريق الصّامتين والسّاكتين أمام حركة التّغيير الثّوريّ -وهذا حكم أغلبيّ- كما يقولون في الفقه وليس حكماً مطلقاً ولا عامّاً، بل هو حالة أكثريّة في النّسيج الثّقافيّ والاجتماعيّ السّوريّ، لأنّه لم ينخرط أكثرهم في الثّورة بشكل عمليّ، بينما انخرط الأقلّ منهم في مراحل قوّة الثّورة وظهور مؤشّرات النّصر واقتراب إسقاط النّظام، وهي حالة براغماتيّة شديدة الوضوح فحيثما تكن المصلحة يكونوا، ممّا أفقدهم القيمة والتّأثير في صفوف الشّباب وقوى الفعل الثّوريّ.

ولذلك أدّت هذه الحالة إلى تقليص وتحييد أيّ دور لهم في عمليّة تصويب وتوجيه الثّورة، ولو حتّى على مستوى رسم وتوضيح بعض المقاربات والإستراتيجيّات الممكنة، وفي الموقف الآخر الدّاعم والمساند للنّظام وقف جزء كبير من الأكاديميين والشّيوخ والنّخب مع السّلطة وأدواتها القمعيّة المتوحّشة بخطاب مباشر وتحالف واضح لا لبس فيه ولا تأويل، فهذا الفريق سلطويّ بحت وهو أحد مظاهر مؤازرة الاستبداد والقمع.

وباستعراض سريع نجد أسماء كبيرة من الشّيوخ والفقهاء وكذلك من الصّحفيين والكتّاب القوميّين والعلمانيّين السّوريّين والعرب وقفوا مع "بشار الأسد" كما وقفوا مع غيره من الدّكتاتوريّات الطّغيانيّة من سوريّين ولبنانيّين ومصريين بحجة وأكذوبة واحدة ومتماثلة وهي المؤامرة الكونيّة الغربيّة على فريق المقاومة والممانعة! وهذه النّخب السّلطويّة لم تُقابَل بنخب ثوريّة وعلميّة وشخصيّات قياديّة في داخل الخطّ الثّوريّ ممّا أزّم وفاقم نقاط الضّعف في بنية الثّورة وفي خطابها ونماذجها وآليّاتها وخططها الإستراتيجيّة، وهذا الغياب كان له أثر كبير في إعاقة الوصول إلى الأهداف والنتائج الفعليّة للثّورة ومقاصدها التّغييريّة المتوخّاة، وكان من الممكن أن تقوم هذه الصّفوة الثّقافيّة والسّياسيّة بدور رائد في تقويم الثّورة في أهم مرتكزاتها الّتي تشمل:

- **أولاً:** تطوير الثّورة وتوسيعها أفقيّاً وعموديّاً لتشمل كثيراً من الحقول المجتمعيّة الصّامتة والسّاكتة، وصياغة خطاب وحدويّ يضمن التّنوّع ضمن إطار الوحدة الوطنيّة.
- **ثانياً:** تنظيم الثّورة وتأسيس بنى ثوريّة وروابط مشتركة للحراك الثّوريّ وتشكيل مجالس ممثّلة لها داخليّاً وخارجيّاً ومجابهة خطاب النّظام إعلاميّاً وسياسيّاً وإقليميّاً ودوليّاً .
- **ثالثاً:** رسم إستراتيجيّات ومآلات واضحة لمسارات الثّورة ولدّولة المطلوبة؛ دولة الديمقراطيّة والحقوق والحريّات والعيش المشترك في نموذج مدنيّ دستوريّ واضح المعالم.

وبهذه الاعتبارات كان من الممكن أن يتحرّك هذا الخطاب بشكل مبكّر وأن يعمّم في الوسط المحليّ والإقليميّ والدّوليّ، وأهم من ذلك كلّه هو أن يكون الخطاب معبّراً عن هواجس ومصالح الطّبقات الشّعبيّة المختلفة، وما ذهب إليه بعض المفكّرين من خلال قوله: "نقطة الضّعف في كل ّالانتفاضات العربيّة يتمثّل في افتقادها القيادة السّياسيّة الّتي تعبّر عن الطّبقات الشّعبيّة، ولا شكّ أنّ قطيعةً تقوم بين الطّبقات الشّعبيّة والأحزاب المعارضة قبل الانتفاضة وبعدها، وذلك نتيجة سوء فهمها للواقع وتعبيرها عن مصالح نخبويّة"(كيلة، 2013).

والحقيقة أنّ الأحزاب بنخبها ومثقّفيها كانت بعيدة عن الحراك الاجتماعيّ والثّقافيّ والسّياسيّ، بل كانت تنظر بازدراء وعنجهيّة للعمق الشّعبيّ المحرّك للثّورة، وجاء الفصل الميدانيّ في واقع الثّورة ليزيد من عمليّة تهميش وعزل النّخب عن التّأثير أو القيادة، وبذلك تعزّزت هوّة القطيعة والانفصام بين الطّرفين، وهذا ما كان شديد الوضوح في النّخب المدنيّة والدّينيّة على حدٍّ سواء.

وإذا ذهبنا إلى دور النّخبة الدينيّة غير السّلطويّة من الفقهاء والعلماء والقرّاء لن نرى إلاّ دوراً مضمحلاً على مستوى الفعل والانفعال، لأنّه موقف يتّسم بالغيبوبة الفكريّة والثّقافيّة من الناحية النّظريّة والمعرفيّة، وكذلك من ناحية المشاركة العمليّة، خاصّة في قضايا وحقول الاجتماع السّياسيّ المتّصلة بحقوق الإنسان والحرّيات والعدالة الاجتماعيّة ونقد السّلطة وسائر إشكالات واستحقاقات المجتمع في الدّولة الحديثة، وهذا ما تؤكّده البحوث الدّينيّة الكثيرة والمستفيضة الّتي يكتبها الشّيوخ والعلماء، وهي بحوث نظريّة تجريدّة وتاريخيّة بحتة لا صلة لها بالواقع ولا بحقل الاجتماع السّياسيّ، ولا بحقول الإصلاح الاقتصاديّ والحقوقيّ والدّستوريّ.

والحقيقة أنّ هذا الاتّجاه رغم تعظيمه واحتفائه بالتّاريخ والشّريعة لا يستهدي بالاتّجاه التّاريخيّ الإيجابيّ للعلماء والفقهاء الإسلاميّين المؤثّرين في قضايا المجتمع والأمّة والواقفين مع الحقّ والعدل، كأبي حنيفة والعزّ بن عبد السّلام وابن تيميّة وغيرهم من الأفذاذ، بل أصبح الاتّجاه العامّ للشّيوخ والنّخب الدّينيّة على الأغلب اتّجاهاً نكوصيّاً سلبيّاً في خطّه العامّ، كرّس الانكماش والعجز والقهقرى الحقيقيّة إنْ على مستوى الوعي أو على مستوى الدّور الدّينيّ والمدنيّ، وهذا ما عمّق الشقّة والانفصال بين الطّرفين، وأصبحت حالة القطيعة بن النّموذجين النّخبويّ الدّينيّ والشّعبي حالةً قائمةً ومستعصيةً على التّفاعل والتّقارب الحقيقيّ، إلاّ ما كان في حدود الوعظ والإرشاد والعلاقات التّقليديّة الشّكليّة.

ومن المعلوم تاريخيّاً أنّه بعد عام 1970م وهو عام انقلاب "حافظ الأسد" على الدّولة والمجتمع، وصياغة قانون 1972م الّذي جعل حزب البعث قائداً للدّولة والمجتمع، والّذي كرّس من خلاله القمع والإقصاء والتّهميش في عموم الشّرائح الثّقافيّة والاجتماعيّة والدّينيّة، وذلك بسبب عدم الموالاة للسّلطة الأوليغارشيّة الحاكمة، وهو السّبب الّذي زاد حالة التّشظي والتّفتت السّياسيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ في الطّبقة الوسطى وفي سائر طبقات وأطياف المجتمع السّوري، ممّا عطّل قواه الحيّة المتمثّلة بقوى المجتمع المدنيّ والأهلي، بل جعلها قوى مساندة للنّظام أو معزولة عن التّأثير الفاعليّة.

والسّؤال التّاريخيّ والمنهجيّ هو هل يجوز إعفاء أحد كائناً ما كان من مسؤوليّة الفعل الدّينيّ والنّضال السّياسيّ؟ وهذا دور رساليّ وأخلاقيّ واجب على جميع النّخب والإنتلجنسيا والفقهاء والمفكّرين من إسلاميّين وغير إسلاميّين، ولكنّ هذا لم يحدث وانسحبت السّلبيّة والكمون على امتداد الخطّ التّاريخيّ لحكم "آل الأسد" ولم تحرّض الثّورة السّوريّة بكلّ حضورها وزخمها وتضحياتها الأسطوريّة الصّفوة والنّخبة للتّدخل والمساهمة من جديد، بل بقي التّراجع والعزوف هو سمة هذه النّخبات.

وبهذا ازداد حالة الفتور والقطيعة وعدم الثّقة بين القوى المجتمعيّة والشّبابيّة الحاملة للثّورة وبين الشّيوخ والفقهاء من ذوي الخطاب التّاريخيّ الوعظيّ، لأنّهم لا علاقة له بالواقع الموضوعيّ وطبيعة الصّراع القائمة فيه، وبسبب هذه القطيعة استطاع النّظام توجيه قسم كبير من الشّباب الإسلاميّين والسّلفيّين إلى العنف والرّاديكاليّة في ثورة 2011م من

خلال خطاب اجتثاثيّ دوغمائيّ ساهم في ترسيخ التّشوّهات الأخلاقيّة والسّياسيّة للثّورة، وتكريس منظومة الإرهاب والرّاديكاليّة بالثّورة وقواها المعارضة المسلّحة.

وبهذه الاعتبارات لا يمكن لهذه النّخب الدّينيّة والمدنيّة أن تنجح وتستعيد دورها إلاّ إذا كانت لصيقةً بالمجتمع قادرةً على التّثقيف والتّوجيه وممارسة الدّور، ومساهمةً في بناء مجتمع تعايشيّ يؤسّس للتّنوّع والتّعدد، ويحافظ فيه الجميع على السّلم الأهليّ وعلى مفاهيم المواطنة والحقوق الجوهريّة والمصيريّة للمجتمع السّوريّ في كافّة الصّعد، لأنّه لا يمكن أن يستعاد الدّور البنيويّ والتّاريخيّ الفاعل إلاّ بالاهتمام بالقضايا الأساسيّة ذات القيم الإنسانيّة المشتركة.

ومن المعلوم في بدايات الثّورة أنّ ثمّة حالةً من التّذبذب والاضطراب شاعت في أوساط الشّيوخ بين ضغط الثّورة وضغط السّلطة لأنّ الموازين لم تكن راجحة لأحد الطّرفين على الآخر، وقد التقى كثير من الثّوار بالشّيوخ الدّمشقيّين لتحفيزهم على دعم الثّورة وتأييدها، ممّا أصابهم بالحرج الشّديد، وذلك بسبب صعوبة الظّرف والموقف بعد مضيّ ستة أشهر من الثّورة ممّا دفع بازدياد الضّغط الشّعبيّ عليهم(عز، 2014)، فقرّر بعضهم الانحياز للثّورة وبقي الآخرون - كجماعة كفتارو والبوطي وكثير من التّقليديّين والصّوفيّين مصرّين- على الانحياز للنّظام والتّحالف معه بشكل متين.

وقد صوّرت هذه الشّريحة الثّورة بالفتنة، وهو مصطلح فقهيّ تاريخي مستعمل في الفقه السّلطانيّ كثيراً، كما ذكر عزمي بشارة: "لقد صوّرت هذه القوى المحافظة -المؤيدة للنّظام- أي خروج على النّظام بالفتنة، وتحمل الفتنة معاني معياريّة سلبيّة مثل الفوضى الاجتماعيّة وحالة الخصومة العنيفة والمستدامة بين مجموعات سكانيّة، بمعنى الحرب الأهليّة في عصرنا، وهذا ما تفعله إذ تعتبر أيّ ثورة فتنة بالضّرورة، ويزخر المعجم العربي السّياسي للنّظم العربيّة الّتي واجهت انتفاضات أو ثورات أو حركات احتجاج بمصطلحات الفتنة، الّتي تصوّر الثّورة كفتنة"(بشارة، 2011، ص17).

وأمّا الشّيخ القرضاويّ -وهو فقيه كبير ومعتبر- فلا يرى الثّورة السّوريّة فتنة من خلال التّكييف والحكم الفقهيّ، بل يراها ثورة حقّ وفقاً لمعايير الشّريعة الإسلاميّة وأحد أنواع الجهاد المطلوب في سبيل الله(القرضاوي، 2011)، وبذلك نرى أنّ ثمّة تأصيلاً فقهيّاً حقيقيّاً لتوصيف الثّورة.

وهو ما قاله أيضاً أحد أبرز الفقهاء المعاصرين الدّكتور "أحمد الرّيسونيّ" في كتابه المخصّص لفقه الثّورة المسمّى: "فقه الثّورة: مراجعات في الفقه السّياسيّ الإسلاميّ"، تناول فيه مباحث وإشكالات الرؤى الفقهيّة في توصيف مصطلح ومفهوم الثّورة، وطرح رؤى جديدة في تناول البحث على أساس إعادة التّأصيل والنّقد والنّظر من خلال الكليّات والمقاصد، وكان أهمّ ما تناوله في كتابه هو ضرورة ووجوب إعادة النّظر في الفقه السّياسيّ، وأنّ الفقه السّياسيّ منتوج بشريّ تاريخيّ، وأنّ التّاريخ ليس مصدراً للدّين وليس شرعاً لنا، والتّجربة التّاريخيّة غير ملزمة بصفة الحجيّة واللّزوم، وقال في هذا السّياق: "إذا آل أمر المتغلّب إلى الفساد والظّلم ثمّ قام عليه النّاس سقطت شرعيّته ووجب انعزاله - ورفض مفهوم الفتنة - وقال: إنّ الفتنة هي ما كانت تجرّ إلى الضّلال والمعصية والوبال، أو إلى الخوف والحيرة، وما هو مأمور به ومرغّب به ليس فتنة، ولو استلزم بعض التّدافع والتّعارك، لأنّ السّنّة الإلهيّة جارية أنّ الإصلاح والتّمكين لا يكون إلا من خلال الصّراع والتّدافع"(الرّيسونيّ، 2013، ص35).

ومن أهمّ ما عالجه "الرّيسونيّ" في كتابه الثّورة والفتنة مشكلة إمامة المتغلّب الّتي أباحها ورضيها كثير من الفقهاء للمتغلّبين على أساس الشّوكة أو العصبيّة والأمر الواقع، فقال: "الحاصل أنّ إمامة وولاية المتغلّب في الأصل ولاية باطلة، وهي إذا لم يكن لها إلاّ غلبة القوّة والسّلاح لا تعدو أن تكون نوعاً من أنواع الغصب والقرصنة"، وساق كلام القرطبيّ في وجوب إزالة الفاسق: "الإمام إذا نُصّب ثمّ فسق بعد انبرام العقد فقد قال الجمهور: إنّه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظّاهر المعلوم، لأنّه قد ثبت أنّ الإمام يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق.... ولو جوّزنا أن يكون فاسقاً أدّى ذلك إلى إبطال ما أقيم لأجله"(القرطبيّ، 271).

ويرى الرّيسونيّ أنّ هذه الشّروط تحكم المتغلّب وأنّ ولايته طارئة وليست أصيلة، لأنة جاء من خلال الضّرورات، والضّرورات تقدّر بقدرها، وماعدا ذلك فالاستيلاء ممنوع وباطل، وحسابات الفقهاء حسابات مصلحيّة ومقدّرة بالزّمان والمكان.

وتجدر الإشارة إلى أنّ شخصيّات دينيّة عالميّة ناصرت الثّورات وحقوق الإنسان ودعمت الديمقراطيّة وحقّ الشّعوب بالتّحرّر مثل: محمد الغزاليّ والقرضاويّ ومحمد عمارة وجودت سعيد وشخصيّات إنسانيّة أخرى كنلسون مانديلا ومارتن لوثر كينغ والدّالاي لاما وكثيرين ممّن ساهموا في لاهوت التّحرير في أمريكا اللاتينيّة وشرق أوربا، وذلك باعتبار أنّ الثّورة هي حالة إنسانيّة تحرّرية تتجاوز الحدود والسّدود بين الثّقافات والأديان والمجتمعات، لأنّ مفهوم الحريّة الإنسانيّة والعدالة والحقوق هو مفهوم ونشاط دينيّ وإنسانيّ متجاوز وعابر للمذاهب والانتماءات، فالضّروريّات الإنسانيّة ذات وشيجة واحدة وفلسفة كونيّة مشتركة.

ويعرف السّوريّون تاريخيّاً طبيعة التّحالف بين النّظام والشّيوخ منذ تشكّل السّلطة البعثيّة الطائفيّة في سوريا وتجنيد المؤسّسات والشّخصيات الرّسميّة الدّينيّة وغير الرّسميّة للحفاظ على المصالح والامتيازات المشتركة بينهم وبين النّظام، وفتاوى البوطيّ وحسون بقتل الثّوار والمواطنين المدنيّين أشهر من أن تُعرف، بل تعدّى الوصف إلى الحلفاء الرّوس والإيرانيين للنّظام، وأطلقت أوصاف القداسة والشّهادة على الشّخصيّات والميلشيات الرّوسيّة والإيرانيّة، وأنّ الجيش الرّوسيّ جيش مقدّس، وأنّ قاسم سليمانيّ أحد أبطال الإسلام، وأنّ بوتين مجاهد عظيم! إنّها حالة هستيريّة من العبوديّة والسّفالة والانصهار في النّظام إلى درجة مقزّزة وشديدة الخطورة، وهذا الخطورة انعكست على قبول الخطاب الدّينيّ نفسه عند شرائح كثيرة من داخل الثّورة.

وفي هذا السّياق لا بدّ من الإشادة بمواقف قلّة من الفقهاء والعلماء الّذين استنفروا ووقفوا مع الثّورة وخطّها الدّينيّ والإنسانيّ كالشيخ محمد عليّ الصّابوني وكريّم راجح وأسامة الرّفاعيّ وآخرين، ممّا جعلهم يشكّلون حالةً إيجابيّة استثنائيّةً في الحقل الدّينيّ السّوريّ.

والحقيقة أنّ في صفحات التّاريخ نماذج مرجعيّة مضيئة لمواقف العلماء وثوراتهم ضدّ الاستبداد ابتداءً بمواقفهم ضدّ الحكّام الأمويّين ومروراً بالعبّاسيّين وانتهاءً بالعثمانيّين وصولاً إلى العصر الحديث، وكذلك في مقاومة وقيادة حركات التّحرّر الوطنيّ ضدّ الاستعمار، وهو أنموذج عظيم ومشرّف، ولكنّ هذا الاستثناء لا يلغي القاعدة المطّردة لفقهاء السّلطة وأبواقها المنافقة المؤيّدة للقتل والقمع والإرهاب وتدمير المدن، لذا من الضّرورة استحضار وإدراك طبيعة التّحالف السّياسيّ الكهنوتيّ تاريخيّاً، وأنّها ليست حالة طارئة على الاجتماع الدّينيّ والسّياسيّ ولكنّها مخالفة لروح الدّين وجوهره وحقيقته، لأنّها سمة وصفة شخصيّة ومؤسسيّة تقوم على تكريس كهانة دينيّة تستقوي بالسّلطة السّياسيّة لتشرعن وجودها بشرعيّة أبديّة.

وهذه الشّرعيّة المطلوبة أسّست لحالة كنسيّة جليّة رغم رفضها لمصطلح "الإكليروس الدّينيّ"، وهو إكليروس حقيقيّ يقوم على تبادل المنافع والمصالح بين السّلطتين الدّينيّة والزّمنيّة، والشّواهد في الدّول العربيّة والخليجيّة أكثر من أن تحصى، كالأزهر والسّلفيين من حزب النّور في مصر وسلفيي الخليج والسّعوديّة، والّذين انقلبوا إلى مهرجين ومروّجين للسّفور والانحراف والتبذّل والاستبداد والظّلم، وكلّ ذلك ليس اقتناعاً بل نفاقاً وارتزاقاً وميلاً مع الأهواء والمصالح الرّخيصة الّتي تغدقها عليهم السّلطات الأوليغارشيّة الحاكمة.

وإذا انعطفنا إلى تقويم النّخب المدنيّة من المثقفين والإعلاميّين والكتّاب سنجد تبايناً واضحاً في النّظر إلى الثورة وطبيعتها وفحواها، لقد بدأت مجموعة كبيرة من النّخب بعمليّة مؤازرة السّلطة بحالة مبكّرة ومبرمجة ومستثمرة لكلّ أنواع التّشكيك بالثّورة ومساراتها، وخاصّة من اليساريّين والقوميّين والعلمانيّين الموالين للسّلطة.

وقد ذكر بشارة هذه الظاهرة في قوله: "لكن ما يصعب فهمه هو تساؤل تشكيكي موجود في وسائل الإعلام عن الثّورات الرّاهنة ويثيره بشكل خاصّ مثقفون عرب كانوا يساريين، ويعتقدون أنّ الثّورات العربيّة لا تستحقّ اسم الثّورة"(بشارة، 2011، ص23)، رغم أنّ المشاركة الشّعبيّة تجاوزت كمّاً وكيفاً كلّ النّخب الموجودة والحاضرة في الوسط العربيّ، ولعلّ هذا التّجاوز هو أحد أسباب الانكفاء حتّى على مستوى الاعتراف بشرعيّة الثّورة بله المشاركة فيها، وربّما يتّجه بعض الأسباب إلى نجاح الطاقات الشّبابيّة والمجتمعيّة بتفجير الثّورة وعجز النّخب والأحزاب الهرمة عن فعل مماثل، ممّا أزّم مكانة النّخبة وقيمتها في المجتمع العربيّ والأوساط الشّعبيّة.

وليس بالضّرورة ولا بالواقع أن تكون جميع النّخب السلبيّة سلطويّة، ولكن حالة العجز والاستسلام الّتي تعيشها النّخب السلبيّة انعكست على تقويم صحيح ومحايد لتوصيف الثّورة وآفاقها ومكوّناتها، وهذا ما زاد من عزلة وتهميش هذه النّخب وإقصائها عن الوجدان الجماهيريّ على مستوى الاعتبار القيميّ وعلى مستوى العلاقة الاجتماعيّة والسّياسيّة.

وهذا التّهميش لا يرجع إلى مأزق الثّورة وانشطاراتها فحسب بل له أسبابه التّاريخيّة والموضوعيّة، لقد هشّم النّظام البنى المدنيّة والمجتمعيّة طيلة عقود طويلة من خلال الخوف والرّهاب وعمليّات الإفساد والتّخريب الممنهج للإنسان والمجتمع، وهذا جزء مهمّ في سياسات الأنظمة العربيّة العسكرتاريّة والشموليّة، والّتي أدّت في المآل إلى إنتاج نخب جوفاء ليس لها قيمة في العقل السّياسيّ وفي قوى المجتمع الثّوريّ، كونُها مترهّلة بعيدة عن شجون المواطن وكفاحه وحقوقه المستلبة، فغدت نخباً فارغة منخورةً يمتلك بعضها مواقع وشهادات أكاديميّة عالية ولكنّها عارية عن المضمون والهدف الاجتماعيّ والسّياسيّ والحقوقيّ، فأدّى ذلك بدوره إلى جفاف الرّوح الثّوريّة وإرادة التّغيير في أكثر البلاد العربيّة بل في عمومها، وهذا ما كان شديد البروز في التّجربة السّوريّة على وجه الخصوص، وذلك لتعقيدات ترجع إلى طبيعة النّظام العسكريّة الطّائفيّة المغلّفة بقشر وشكل بعثي لا قيمة حقيقيّة له، لا في الواقع ولا في مفاصل الدّولة وتركيبتها وقراراتها، ممّا جعل حزب البعث وسيلة بشعة ودنيئة عند الانتهازيّين للحصول على المصالح والمنافع الخاصّة، ولكن تحت سقف الأمن والمخابرات التّي تمثل القوّة الفعليّة والمحرّكة لهذه النّماذج الانتهازيّة.

ومن الواجب الالتفات إلى أنّ أخطر انعكاسات الوعي المزيّف للتّاريخ هو الاستسلام لنظريّة هذا ما كان من خلال تحليل وتركيب القضايا والتّعقيدات الواقعيّة والسّياسيّة، وإحلال نظريّة هذا ما كان هو تحليل انهزاميّ نكوصيّ لإعفاء النّفس من المسؤوليّة المستقبليّة، وعدم البحث عن خيارات الفعل المطلوب والمراجعات الهادفة، وذلك من خلال تفعيل سنّة التّدافع والصّراع الّتي يجب أن تكون إحدى محرّكات القوّة العقديّة للمجتمع للوصول إلى التّغيير والتّحرير المنشود، فعلى هذا الأساس لابد للنّخب من أن تراجع دورها الثّقافيّ والاجتماعيّ، وأن تتطلّع لإغناء المجتمع بالتّحفيز وبالتّنمية الفكريّة والسّياسيّة، بل بالدّيناميّات الفاعلة والمطلوبة الّتي تحوّل الفكر والثّقافة إلى طاقة إنسانيّة خلّاقة ومتحرّرة، وبذلك يمكن تجاوز مصطلح موت المثقّف الحامل الرّسالة وموت النّخبة الحاملة للتّغيير، لأنّ هذا الموت روّجت له كثير من الأدبيّات السّياسيّة لإشاعة الانسداد والموت في طرائق التّغيير، وفي العلائق المجتمعيّة الفاعلة بين النّخب وبين قواها الشّعبيّة الحيّة، وبذلك يكون الردّ والتّصحيح حينما تنحاز النّخبة لمشروع الأمّة لا لمشروع السّلطة، والمستقبل رهن بطبيعة هذا الصّراع وهذا التّدافع السّننيّ بين حقّ الأمّة، وبين قوّة السّلطة الجائرة الظّالمة، والأمّة هي التّي تمثّل مشروع الحقّ والعدل والبقاء والتّمكين السّياسيّ والحضاريّ.

نتائج البحث :

ربّما تكمُن بعض أسباب انهيار دور النّخب في التّأثير في سببين رئيسين:

- **أولاً:** انقسام النّخب إلى نخب دينيّة وغير دينيّة متصارعة إيديولوجيّاً وفكريّاً بشكل بيني بعيد عن مقاومة السّلطة المتوحّشة، وانحياز بعضهم للسّلطة لما يرى فيها من النّفوذ والاستقواء على الآخرين لتحقيق المصالح والمنافع المشتركة.
- **ثانياً:** ازدياد عدد النّخب الطّفيليّة الانتهازيّة ذات الثّقافة الوظيفيّة على حساب النخّب الفاعلة سياسيّاً واجتماعيّاً والمبدعة فكريّاً وثقافيّاً، والّتي تعمل لخطّ الأمّة ومشروعها الحضاريّ والإنسانيّ لا لخطّ السّلطة ومشروعها الاستبداديّ.

فهرس المراجع

1- أحمد الرّيسونيّ، فقه الثّورة مراجعات في الفقه السّياسيّ، القاهرة، دار الكلمة للنّشر والتّوزيع، 2013 م.
2- جميل حدّاوي، سوسولوجيا النّخب، بلا مكان، 2015م.
3- سلامة كيلة، الثّورة السّوريّة واقعها وصيرورتها، بيروت، دار أطلس، بلا تاريخ.
4- عزمي بشارة، الثورة والقابليّة للثّورة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، 2011 م5
5- علي المرهج، من هو المثقّف العضويّ، موقع الكترونيّ، صحيفة العالم الجديد.
6- عمّار عز، شيوخ دمشق خانوا الثورة أم خانوا النّظام، العرب، موقع الكترونيّ، بتاريخ 1/15/ 2014م.
7- محمد عمارة، الإسلام والثّورة، القاهرة، دار الشّروق، 1988م.
8- معجم المعاني الالكترونيّ، مادة ثورة.
9- يوسف القرضاوي، الثّورة فتنة أم رحمة، الجزيرة نت، بتاريخ 11 /9 /2011 . ولقاء آخر في قناة الجزيرة بتاريخ 2 / 10 / 2011 ، برنامج: الشريعة والحياة .